

الباب السابع عشر

في الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم في فضيلة الصبر

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن مالك بن مغول، عن السفر قال: مرض أبو بكر رضي الله عنه فعادوه فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رأي الطبيب قالوا: فأى شيء قال لك؟ قال: قال إني فعال لما أريد.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وجدنا خير عيشنا بالصبر وقال أيضاً: أفضل عيش أدركناه بالصبر ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس بار الجسم ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له. وقال: الصبر مطية لا تكبو.

وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاوضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعها. وقال سليمان بن القاسم: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوقِ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠) قال: كالماء المنهمر.

وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل وقت ينظر فيها وفيها: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٢٨).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كان الصبر والشكر يعيرين لم أبال أيهما ركبت وكان محمد بن شبرمة إذا نزل به بلاء قال: سحابة صيف ثم تنفث. وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ١٠٦).

لَمَّا صَبْرًا ﴿ (السجدة: ٢٤) لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوساً. وقيل للأحنف ابن قيس: ما الحلم؟ قال: أن تصبر على ما تكره قليلاً. وقال وهب: مكتوب في الحكمة: «قصر السفه النصب وقصر الحلم الراحة وقصر الصبر الظفر» - قصر الشيء وقصاراه غايته وثمرته - وقدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد وكان من أحسن الناس وجهاً فدخل يوماً على الوليد في ثياب وشي وله غدירתان وهو يضرب بيده، فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قریش فعانه فخرج من عنده متوسناً فوقع في اصطبل الدواب فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات، ثم إن الآكلة وقعت في رجل عروة، فبعث إليه الوليد الأطباء، فقالوا: إن لم تقطعها سرت إلى باقي الجسد فتهلك، فعزم على قطعها فنشروها بالمنشار فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة فغشي عليه ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر فأخذها وجعل يقلبها في يده، ثم قال: أما والذي حملني عليك أن ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى مالا يرضي الله ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقائه يعزونه فجعل يقول: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (الكهف: ٦٢). ولم يزد عليه، ثم قال: لا أدخل المدينة إنما أنا بها بين شامت بتكية أو حاسد لنعمة فمضى إلى قصر بالعقيق فأقام هنالك فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة: لا أبا لسانتيك أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها فكشف له عن ركبته، فقال له عيسى: أما والله ما كنا نعدك للصراع قد أبقي الله أكثرك عقلك ولسانك وبصرك ويداك واحدى رجلتك، فقال له عيسى: ما عزاني أحد مثل ما عزيتي به ولما أرادوا قطع رجله قالوا له: لو سقيناك شيئاً كي لا تشعر بالوجع قال: إنما ابتلاني ليرى أفاعارض أمره وسئل ابنه هشام كيف كان أبوك يصنع برجله التي قطعت إذا توضع قال: كان يمسح عليها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا سلام قال: سمعت قتادة يقول: قال لقمان وسأله رجل أي شيء خيراً قال: صبر لا يتبعه أذى قال: فأبي الناس خيراً؟ قال: الذي يرضى بما أوتي قال: فأبي الناس أعلم قال: الذي يأخذ

من علم الناس إلى علمه قيل : فما خير الكثر من المال أو من العلم قال : سبحانه الله بل المؤمن العالم الذي إن ابتغى عنده خيراً وجد وإن لم يكن عنده كف نفسه وبحسب المؤمن أن يكف نفسه وقال حسان بن أبي جبلة : (من بث فلم يصبر) ورواه ابن أبي الدنيا مرفوعاً إلى النبي ﷺ - وإن صح - فمعناه : إلى المخلوق لا من بث إلى الله وقال حسان بن أبي جبلة أيضاً في قوله تعالى : ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ (يوسف : ٨٣) قال : لا شكوى فيه ورفع ابن أبي الدنيا أيضاً وقال مجاهد : ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ في غير جزع وقال عمرو بن قيس ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ قال : الرضا بالمصيبة والتسليم وقال بعض السلف : فصبر جميل لا شكوى فيه وقال همام عن قتادة في قوله تعالى : ﴿وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف : ٨٤) قال : كظم على حزن فلم يقل إلا خيراً وقال يحيى بن المختار عن الحسن : «الكظيم : الصبور» وقال همام عن قتادة في قوله تعالى : ﴿وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي كמיד : أي كمد الحزن وقال الحسن : ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر وجرعة غيظ ردها بحلم .

وقال عبد الله بن المبارك : أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار أن سعيد بن جبير قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر - فقوله : «اعتراف العبد لله بما أصاب منه» . كأنه تفسير لقوله : «إنا لله» فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكة بما يريد وقوله : «راجياً به ما عند الله» كأنه تفسير لقوله : ﴿وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (البقرة : ١٥٦) أي نرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة وقوله : «وقد يجزع الرجل وهو يتجلد» . أي لبس الصبر بالتجلد وإنما هو حبس القلب عن التخطئ على المقدور ورد اللسان عن الشكوى فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر .

وقال يونس بن زيد : سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن : ما منتهى الصبر؟ قال : أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثل قبل أن تصيبه وقال قيس بن الحجاج في

قول الله: ﴿قَامِرٌ صَبْرًا حَمِيلاً﴾ (المعارج: ٥). قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو وكان شمر إذا عزي مصاباً قال: اصبر لما حكم ربك وقال أبو عقيل: رأيت سالم بن عبد الله بن عمر بيده سوط وعليه إزار في موت واقد بن عبد الله بن عمر لا يسمع صارخة ينالها بالسوط إلا ضربها.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن جعفر بن مهران قال: قالت امرأة من قریش:

أما والذي لا خُلْدَ إلَّا لوجهه ومن ليس في العز المنيع له كُفُو
لئن كان بدء الصُّبرِ مرأً مذاقه لقد يُجنى من غبه الشمر الحُلُو
قال وأنشدني عمرو بن بكير:

صبرتُ، فكان الصبرُ خيرَ مغبةٍ وهل جزع يُجدي علي فأجزع؟
ملكتم دموع العين حتى رددتها إلى ناظري، فالعين في القلب تدمع
قال وأنشدني أحمد بن موسى الثقفي:

تُبثُّ خولة أمس قد جزعتُ من أن تنوب نوائب الدهر
لا تجزعي، يا خولة، واصبري إن الكرام بنوا على الصبر
قال وحدثني عبد الله بن محمد بن إسماعيل التيمي أن رجلاً عزي رجلاً
في ابنه فقال: إنما يستوجب على الله وعده من صبر له بحقه فلا تجمع إلى ما
أصبت به من المصيبة الفجيعة بالأجر فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى الرزيتين
لك والسلام.

وعزي ابن أبي السماك رجلاً فقال: عليك بالصبر فيه يعمل من احتسب
وإليه يصبر من جزع وقال عمر بن عبد العزيز: أما الرضا فمنزلة عزيزة - أو منيعة
- ولكن جعل الله في الصبر معولاً حسناً ولما مات عبد الملك ابنه صلى عليه ثم
قال: رحمك الله لقد كنت لي وزيراً وكنت لي معيناً قال: والناس ييكون وما
يقطر من عينه قطرة وأصيب مطرف بن عبد الله في ابن له فأتاه قوم يعزونه فخرج
إليهم أحسن ما كان بشراً، ثم قال: اني لأستحي من الله أن أتضعع لمصيبة

وقال عمرو بن دينار: قال عبيد بن عمير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ولكن الجزع القول السني والظن السني.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني الحسين بن عبد العزيز الحروزي قد مات ابن لي نفيس فقلت لأمه: اتقي الله واحتصيه واصبري. فقالت: مصيبي أعظم من أن أقسدها بالجزع.

قال ابن أبي الدنيا: وأخبرني عمر بن بكير عن شيخ من قریش قال: مات الحسن بن الحصين أبو عبيد الله بن الحسن وعبيد الله يومئذ قاض على البصرة وأميراً فكثير من يعزيه فنذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع.

وقال خالد بن أبي عثمان القرشي: كان سعيد بن جبير يعزيني في ابني فرآني أطوف بالبيت متنعاً فكشف الفناع عن رأسي وقال: الاستكانة من الجزع.

فصل وضع المصاب ثوباً ليُعرف

وأما قول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم: لا بأس أن يجعل المصاب على رأسه ثوباً يعرف به قالوا: لأن التعزية سنة وفي ذلك تيسير لمعرفته حتى يعزيه ففيه نظر وأنكره شيخنا، ولا ريب أن السلف لم يكونوا يفعلون شيئاً من ذلك لا نقل هذا عن أحد من الصحابة والتابعين والآثار المتقدمة كلها صريحة في رد هذا القول وقد أنكر إسحاق بن راهويه أن يترك لبس ما عاداته لبسه وقال: هو من الجزع.

وبالجملة فعاداتهم أنهم لم يكونوا يغيروا شيئاً من زيهم قبل المصيبة ولا يتركوا ما كانوا يعملونه فهذا كله مناف للصبر والله سبحانه أعلم.